كلمة التحرير

النَّقْدُ الذَّاتِيُّ في فِقْه المُراجَعَات

هيئة التحرير

في غمرة الحديث عن المراجعات التي تتمُّ في إطار الفكر الإسلاميّ المعاصر على مستوى الأفراد والجماعات، وبالنظر إلى هذه المراجعات بوصفها محاولةً لفهم واقع الأمة المعاصر، وسبل النهوض بهذا الواقع، وعلى ضوء ما يرافق هذه المراجعات في بعض الأحيان من تراجعاتٍ عن الأصول الثابتة، تشتدُّ الحاجةُ إلى بناء ثقافة المراجعات، وتطوير فقه المراجعات، مع الاعتصام بما يلزم أن يحكم فكرنَا وسعْيَنا من مرجعيَّات.

ونحن نلاحظ أنَّ ما يدور في الساحة الثقافيّة والفكريّة اليوم في مجال المراجعات يختلط بقدرٍ كبير من القلق؛ إذ نجد تحفُّظاً شديداً لدى بعضنا من فكرة المراجعات نفسها، وشجاعةً وجرأة ملحوظة عند بعضنا الآخر في الدعوة إليها وممارستها. ونحن نرى أنَّ مسألة المراجعات تقع في سياق ما يسمى "التفكير النقديّ" الذي يُعد ظاهرةً أصيلةً في الوجود البشري، وحاجةً ملحّةً في بقائه ورُقيِّه الحضاريّ.

والنقدُ نوعٌ من أنواع التفكير، وليس كل أنواع التفكير نقداً، ولكنَّنا نستطيع أن نميّز في التفكير النقديّ بعض عناصر الأنواع الأخرى، مثل التفكير الإبداعيّ والتفكير الاستشرافيّ–المستقبليّ والتفكير المنطقيّ، والتفكير الفلسفيّ وغير ذلك. ثم إنَّ التفكير النقديّ يدخل في أنواع مختلفة من النقد، فثمة أنواع تختص بالموضوع، منها النقد الأدبي، والنقد الفنيّ، والنقد التاريخي، والنقد الإعلامي، وغيرها، ولكلٍّ منها فروع، ولكل منها قواعد ومعايير ومناهج، ولكل منها متخصصون، ومدارس فكرية، وبرامج تعليمية، وكتب، ومجلات، ومؤتمرات، والتفكير النقديّ يدخل فيها جميعاً. وفي بعض العلوم نظرياتٌ نقديَّة تُنشئ فرعاً كاملاً، كما في علم النفس النقديّ، وفي أنواع النقد مناهج متمايزة، منها المنهج النفسيّ في النقد الأدبيّ.

وهكذا فليس من الممكن لمقالة قصيرة أن تستوعبَ ميدان التفكير النقدي بمجالاته وتفرّعاته ونظرياته. وبالمثل فإنَّ من المتعذِّر أن نُلِمَّ بكل أطراف الحديث عن النقد الذاتيّ في هذه المقالة. وحسبنا في هذه العجالة أن نختار ما نظنُّ أن من المفيد أن نُشير إليه، مما يتكرر الحديث عنه هذه الأيام، تحت ضغط حالات الإحباط التي يمرُّ بها كثير من الناس، لعدم تحقّق ما يسعون إلى تحقيقه، وتَمُرّ به المجتمعات العربية والإسلامية من فشلٍ متلاحق في برامج التنمية، وعجز متواصل عن تحسين مستوى الحياة، مع الاحتفاظ بالرؤية الكلية لهذا المدى الواسع من هذا الميدان.

والنقد لفظ قديم ومعروف بمعانٍ متعددة، يهمُّنا منها ما يختصُّ بالتفكير النقديّ. ولعلَّ أقدم منا وصلنا في مصطلح النقد ما جاء في عنوان كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت337هـ) حيث ورد في سبب تأليف الكتاب قول المؤلف: "العلم بالشعر ينقسم أقساماً، ... وقد عُنِيَ الناس بوضع الكتب في القسم الأول وما يليه إلى الرابع عنايةً تامة... ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً."[1] وشاع مصطلح نقد الدراهم، لتمييز جيّدِها من رديئها، حتى ورد هذا المعنى في معظم معاجم اللغة. ففي أساس البلاغة للزمخشري (ت538هـ)، ومختار الصحاح للرازي (ت660هـ) ولسان العرب لابن منظور (ت711هـ)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت817هـ)، وتاج العروس للزبيدي (ت1205هـ) يتكرر نقد الدراهم؛ أي إخراج الزيف منها، وتمييز جيّدها من رديئها. ويتكرر لدى بعضهم أبيات من الشعر منها:

تَنْفِي يَدَاها الحَصَى فِي كُلِّ هاجِرةٍ ... نَفْيَ الدَّنَانِيرِ تَنْقَادُ الصَّيارِيفِ[2]

---

[1] ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي. **نقد الشعر**، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1962م، ص13، 14.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد. **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م، ج2، ص297. انظر أيضاً:

– الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. **مختار الصحاح**، تحقيق: عصام الحرستاني، عمان: دار عمار، ط9، 2005م، ص329.

– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، 2003م، مج3، ص425. مادة: نقد.

نقدُ الشيء تقديرُه والحكمُ عليه، بما هو عليه وما هو فيه. وحين يكون لدى الناقد صورةٌ ذهنية مسبقة عن الشيء، فإنَّ هذه الصورة ربَّما تكون من باب الظنِّ، بسبب النقص في المعلومات وغياب الأدلة، أو ربَّما تكون من باب هوى النفس بسبب اتجاهٍ نفسي مسبق. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ (النجم: 23). [3]

والنقد الذاتيُّ نوع من أنواع التفكير النقديّ، يمارسه الفرد ويمارسه المجتمع، وتمارسه الجماعات العلمية في تخصصاتها، ويعتمد تقدم العلم وتطوره في جميع التخصصات على استمرار التفكير النقديّ المستمر للمعرفة الراهنة. وإذا كان النقد يتوجّه في الإنسان بالنظر والتحليل والاختبار إلى الأشياء الأخرى، أو إلى الناس الآخرين، فإنّه قد يتوجّه به الإنسان إلى نفسه، بحثاً عما النقص ليكمله والخطأ ليصلحه، وهذا هو نقد الذات. ويسهل على الإنسان أن يرى ما حوله أكثر مما يرى نفسه، فما يراه يكون شيئاً مستقلاً عن ذاته، لذلك فإنَّ وصف ذلك الشيء والحكم عليه وبيان قيمته، يكون أسهل من وصف نفسه والحكم عليها. وحتى يتمكن الإنسان من رؤية نفسه والحكم عليها فإنَّ عليه أن ينظرَ إلى نفسه من خارجها، وكأنَّه يستقلّ عن نفسه وينفصل عنها لحظة من الزمان، ليكون حكمه موضوعياً عقلانياً.

ونقد الذات أصيل في الطبيعة الإنسانية، فعندما أدرك آدمُ وحوَّاء زلَّتهما في الأكل من الشجرة، لم يتَّهِما الشيطانَ الذي قال الله عنه ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف: 20-22). بل ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا

– الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م، ص322.

– المرتضى الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. **تاج العروس من جواهر القاموس**، عناية: عبد المنعم خليل إبراهيم، وكريمة سيد محمد محمود، بيروت: دار الكتب العلمية، 2007م، ج9، ص129، مادة: نقد.

[3] يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "التفنن في معاني الظن في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتى يلحقه المسلم بما يناسبه من حُسن أو ذم على حسب الأدلة" انظر:

– ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984، ج27، ص109.

أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف: 23). وفي المقابل فإنَّ الشيطان لم يَعْزُ معصيتَه بعدم السجود إلى نفسه، معترفاً بخطئه، وإنما عزا الغواية التي وقع فيها إلى الله سبحانه، قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ (الأعراف: 16). وإذا كان الاعتراف بالذنب فضيلةً بشريةً فطرية، فإن عدم الاعتراف بالذنب والعجز عن نقد الذات كِبرٌ شيطانيٌّ.

وظلمُ النفس جزء من فطرة الإنسان، ولوم النفس على ما يقع من هذا الظلم جزء من الفطرة كذلك، وقد يصل اللَوْم درجةً تُصبح فيها النفس لوَّامة؛ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (القيامة: 2) والنفس اللوّامة تلومُ صاحبَها على التقصير في أداء الطاعة، أو الخطأ في إتيان المعصية، وتمارس هذا اللوم مرةً بعد مرة، حتى تَتَلبَّس بصفته، ويصبحَ طبعاً فيها وعادةً لها، وهي منزلة عالية من منازل النفوس البشرية استحقَّت أن يُقسم الله بها، وحين يُقسم الله بشيء فإنَّنا نعلم شيئاً من عظمته.

والصحابة الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تبوك، قد وصل بهم نقد الذات والندم على التقصير والتوبة إلى الحدِّ الذي وصف القرآن الكريم حالهم به بأنهم: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (التوبة: 118).

والقرآن الكريم يُرسي هذا المنهج في النقد الذاتي، وينوّه بمن يُطبّقه، فبعد أن قَتل موسى عليه السلام الرجلَ القبطي، وهو يدافع عن رجل من قومه، انتقد نفسه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (القصص: 16)، ومَلِكَةُ سبأ عندما قرّرت الدخول في الإيمان أدركت خطأها في عبادة الشمس من قبل، وانتقدت نفسها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (النمل: 44).

وقد حَفَلَت مصادر الثقافة الإسلامية بكثير من الحديث عن محاسبة النفس، ومراقبتها، سواءً في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين والعلماء من مختلف العصور. والله سبحانه جعل الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً للإنسان، بعد أن قدم له الهدى الكامل إلى سبيله، وجعل يوم الحساب في الحياة الآخرة بياناً لنتيجة هذا

الاختبار. فإن ضلّ عن هذا السبيل فله عذاب شديد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص: 26)؛ "أي لم يفكر في عاقبة ما يقدمه من الأعمال. وفي جعل الضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب سببين لاستحقاق العذاب الشديد تنبيه على تلازمهما؛ فإنَّ الضلال عن سبيل الله يفضي إلى الإعراض عن مراقبة الجزاء."[4]

وجاء في رواية مشهورة عن عمر بن الخطاب ﷺ يقول فيها: "حَاسِبُوا أنفُسَكُمْ قبل أن تُحَاسَبُوا، وزِنوا أَعْمَالكُم قبلَ أَن تُوزَنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعَرْضِ الأكبرِ، يؤمئذٍ تعرضون لا تُخْفَى منكم خافية."[5] والحارث المحاسبي سُمي بهذا الاسم لشدة ما كان يحاسب نفسه، وهو يوضح معنى المحاسبة فيقول: "قلت: فما المحاسبة؟ قال: النظر والتثبُّت، بالتمييز لما كَرِهَ الله ﷻ، ممّا أحبّ، ثم هي على وجهين: أحدهما في مستقبل الأعمال، والآخر في مستدبرها."[6] أي قبل العمل للتثبت من صحته، وبعد العمل للاعتبار، وأخذ الدرس أو استكمال النقص. وللمحاسبي كذلك في كتاب الوصايا: "قلت: فما ميراث المحاسبة؟ قال: زيادةٌ في البصيرة، وكَيْسٌ في الفطنة، وسرعة في إثبات الحجة، واتساع في المعرفة."[7]

أليس هذا وِرْد المحاسبة الذي توصى به ثقافتنا الإسلامية، وهو ما نُسمّيه اليومَ بالنقد الذاتيّ؟!

وعندما يتكرس منهج النقد الذاتي في حياة الفرد، فإنَّه سيتوقف عن الدفاع عن أخطائه ولوم الآخرين، وتفريغ طاقاته في هذه الحالة العبثية. وعندما يصبح هذا المنهج ثقافةً اجتماعية يمارسها المجتمع بأفراده ومؤسساته، فإنَّ المجتمع سيكون أقدر على حلِّ مشكلاته وإصلاح شؤونه.

[4] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج23، ص246.

[5] ابن أبي الدينا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد. **محاسبة النفس والإزراء عليها**، تحقيق: المستعصم بالله، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1986م، ص22.

[6] المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **الرعاية لحقوق الله**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط3، 1970م، ص54.

[7] المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **الوصايا**: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1986م، ص229.

وفي قصة أصحاب الجنة يقدّم لنا القرآنُ الكريم نموذجاً للنقد الذاتي على مستوى الجماعة، وفي القصة ما يفيد بأنَّ واحداً من الجماعة قام بنقد ما اقترحه بعضهم، لكنَّهم في النهاية عزموا مجتمعين، وأقسموا على تنفيذ ما عزموا عليه ليُلْزِموا ذلك المتردد. فقد عقدت الجماعة العزم على قطف ثمار بستانهم دون أن يعطوا للمساكين شيئاً. فلما ذهبوا إلى بستانهم وجدوه محترقاً، فظنوا أنهم قد ضلّوا الطريق، استبعاداً للتفكير في أنَّ ذلك كان نتيجةً لما عزموا عليه من السوء. فلما تبيَّنتْ لهم الحقيقة، أنهم أمام بستانهم، ذكّرهم أوسطهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (القلم: 28)، ثم أدركوا الظلم الذي أوقعوا أنفسهم فيه ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (القلم: 29). ثم أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما فرط من فعلهم: كلٌّ يلوم غيرَه بما كان قد تلبَّس به في هذا الشأن من ابتكار فكرة منع المساكين ما كان حقاً لهم من حياة الأب، وكأنَّ كلَّ واحد منهم لا يريد أن يعترف بخطئه، فيُلقي اللوم على الآخر. لكنهم في نهاية المطاف "أجمعوا على إجابة بعضهم بعضاً عن ذلك الملام، فقال كُلُّ مَلُومٍ لِلَائِمِه، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾ (القلم: 31) جواباً بتقرير ملامه، والاعتراف بالذنب، ورجاء العفو من الله وتعويضهم عن جنتهم خيراً منها."[8]

وفي موقعة أُحُد رتَّب رسولُ الله ﷺ أمور الجيش، ووكل إلى كل جماعة واجبها، وحين لم تتقيد إحدى الجماعات بالمهمة التي أوكلت إليها حصل الخلل، فكانت الهزيمة، ولذلك جاء الاستنكار على من سأل عن سبب الهزيمة سؤال تعجب: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: 165): قال ابن عاشور: "الاستفهام الإنكاري التعجيبي على ما تقدم، فإنَّ قولَهم: (أنّى هذا) مما ينكر ويتعجّب السامع من صدروه منهم بعد ما علموا ما أتَوا من أسباب المصيبة؛ إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فطنة، وقد جاء موقع الاستفهام بعد ما تكرر من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر رسول الله ﷺ، ومن العجلة إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرضا بما وقع، وذكّرهم النصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار تعجبهم من إصابة الهزيمة إيّاهم."[9] فالتساؤل هنا ربما يعني أنَّ الذين قالوا: (أنّى هذا) كانوا لا يرون أنهم

[8] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج29، ص79-88.

[9] المرجع السابق، ج4، ص160.

السبب، فيبحثون عن سبب آخر، ولذلك وجه الله سبحانه نبيّه أن يقول لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: 165) "أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم، ... لا من عند غيركم، ولا من أحد سواكم."[10]

النقد الذاتي واجبٌ في حقِّ الإنسان تُجاه خالقه، وتُجاه نفسه، وتُجاه الناس. وهو واجبٌ في حقّ الإنسان أيّاً كان علمُه ومنزلتُه. وفي شرع الإسلام ما يوجّه القاضي أن يراجع قضاءه إذا تبين له رأيٌ أقرب إلى العدل،[11] ويوجه المفتي إلى أن يراجع فتواه إذا تبيّنت له معطيات جديدة في الحالة التي أفتى بخصوصها، فقد تكون المسألة واحدة، لكن الفتوى تختلف باختلاف شخص المستفتي واختلاف حيثيات المسألة من زمان ومكان، وبالنظر في مآل الفتوى في كل حالة.

وتتسع دائرة النقد الذاتي لتتجاوز الأمثلة التي يُراجعُ فيها بعض العلماء والكتاب والسياسيين والمفكرين ما قد تبنَّوه من آراء ومواقف، وتُراجعُ فيها جماعات أو أحزاب لتغيير مواقعها أو مواقفها الفكرية، ليصل هذا التوسُّع إلى الاجتهادات التي يقوم بها بعض المفكرين لإعادة النظر في قضايا الفكر الإسلامي، في أمور العقيدة والشريعة والسياسة الاقتصاد وغيرها؛ فبعد أن تكون هذه الاجتهادات قد "زاوجت بين الأصول التي وردت في الدين والأفهام التي استقرت في الأذهان، والواقع الذي تجري به الحياة، تبيَّن منها أنَّ المستقرَّ ليس بالضرورة أن يكون هو الحق بالنظر إلى مستجدات الأحوال، حتى وإنْ كان حقاً في أزمان سابقة وظروف مغايرة. وإذا كان الدين قد جعله الله صالحاً لكل الأزمان فحريٌّ بالمسلمين أن يُعيدوا النظر فيما هو قابلٌ منه للتغير في الفهم أو في التنزيل، لتكون أحكام الله هي الحاكمة مهما تغير الزمن."[12]

[10] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، 1971م، ج7، ص371.

[11] جاء في رسالة عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري عندما ولّاه القضاء في الكوفة والبصرة: "ولا يَمنعنَّك قضاءٌ قضيتَه بالأمس –راجَعت فيه نفسَك، وهُدِيتَ فيه لرُشدك– أن تُراجعَ الحقَّ، فإن الحقَّ قديمٌ، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل." انظر:

– البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي. **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 2003م، كتاب: آداب القاضي، باب: من اجتهد ثم رأى أن اجتهاده خالف نصاً أو إجماعاً، أو ما في معناه رده على نفسه وعلى غيره، ج10، حديث رقم20372، ص204.

[12] النجار، عبد المجيد. **مراجعات في الفكر الإسلامي**، تونس: دار الغرب الإسلامي، 2008م، ص9.

ومن بين المحْدَثين الذي كتبوا نقداً داخلياً في قضايا الفكر الإسلامي، الشيخ محمد الغزالي؛ إذ نجد في كتاباته مراجعات كثيرة تضمنت التحقيق والتدقيق في قضايا اجتهد فيها رأيه على غير ما استقرت في الأذهان. ومن ذلك ما جاء في كتاب: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، من نقد المتن الذي مارسه على بعض الأحاديث النبوية، وكتاب "تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل"، الذي جاء في آخر مقدمته: "من أجل ذلك تعاونت مع أولي الألباب على تشخيص العلّة وتحديد الدواء، باحثاً في الحاضر والماضي، مستقرئاً ما يظهر وما يخفى، فكان هذا الكتاب الذي تدور فكرته حول "المسار الفكري في تراثنا". إنَّه مراجعة وتحقيق."[13] وفي هذا النص يحاول الغزالي أن يبين أنّ ما يأتي به هو نتيجة مدارسة مع نظرائه من العلماء والمفكرين أولي الألباب، وأنه ليس رأياً شخصياً، وإنما هو تحقيق علمي يأخذ بالحسبان استجماع أصول المسألة ونصوصها التي تستحق في فهمها وتنزيلها المراجعة.

والمراجعة عند الشيخ الغزالي تختلف عن الرجوع، ولذلك فإنه يكتب تحت عنوان مراجعة لا رجوع: "إن مراجعة تفكيرنا الديني ضرورةٌ ماسة، ولا أعني بتاتاً رجوعاً عن أصل قائم أو فرع ثابت، فهذا والعياذ به ارتداد مقبوح. هناك فرق بين الرجوع والمراجعة. إنني أعني بالمراجعة: الحساب العقلي الشديد على مواقفنا من أنفسنا وديننا، وماذا فعلنا، وماذا تركنا، وماذا قدَّمنا، وماذا أخَّرنا؟ وكل محاولة للنهوض دون هذه المراجعة الواجبة قد تكون تكراراً للمأساة. وهذه المراجعة سهلة ما دمنا ننطلق من قواعد معصومة أساسها الكتابُ والسنة.... وأولى الخطوات الشجاعة أن نعترف بأغلاطنا، وهي كثيرةٌ ومفزعةٌ ومتغلغلةٌ في ماضينا، ثم تبدأ حركة التصحيح بتُؤَدة وعزمٍ ومضاء."[14]

والتقويم الذاتي للحركات والتنظيمات والمؤسسات والأحزاب أمرٌ ضروريٌّ لإبقاء الحيوية والفاعلية والتقدم. وإذا لم يتم هذا التقويم بصورة منهجية شفافة، تعتمد الصدق مع النفس، والموضوعية الحكم، والأمانة في التوثيق، فسوف تتوزع مواقف أفرادها على

---

[13] الغزالي، محمد. **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، القاهرة: دار الشروق، ط5، 2003م، ص15.

[14] الغزالي، محمد. **علل وأدوية: دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها**. القاهرة: دار الشروق، 1404هـ، ص186-191.

طرفي نقيض، فقد يرى بعضُهم لها من الإنجازات ما يجعلهم مفرطين في التفاؤل، ويبرِّرُون ما قد يُعَدّ من تقصير، ويرى غيرهم لها من الإخفاقات منها يجعلهم مفرطين في التشاؤم، ويستقلُّون ما قد تحقّق من نجاحات، وقد لا تكون الحقيقة عند أيٍّ من الطرفين.

وحين تحتاج المؤسسة إلى تقويم نفسها، فإنَّ أمرَ التقويم لا تكفي فيه آراء المؤسّسين أو المسؤولين في الإدارة، وإنَّما يحتاج التقويم الكامل إلى الآراء والأحكام والمشاعر التي يكشف عنها أفراد المؤسسة جميعُهم، إذ يعكس كلٌّ منهم رؤيتَه لموقعه في المؤسسة، ونقده الذاتي لأدائه فيها، ونقده لزملائه في المستويات المختلفة من الهيكل الإداري، ويشمل التقويم والنقد ما هو مكتوب أو مستبطن عن رؤيةِ المؤسسة ورسالتِها وأهدافِها وبرامجِها، والعلاقات بين أفرادها، وموقعِها بين غيرها من المؤسسات.

وقد ينفع في تقويم عمل المؤسسات ونقده ومراجعته تقريرٌ يُعِدُّه مؤسّسُها أو مديرها، أو واحد من ذوي الشأن فيها، أو لجنةٌ يتم تكوينها لغرض المراجعة، فيأتي ذات الشخص أو تلك اللجنة بتقرير حول النشأة والتطور والواقع والطموح. نعم! قد يكون في ذلك بعض النفع، ولا سيّما إذا استند التقرير إلى حوارٍ واسع داخل أقسام المؤسسة، والعاملين فيها، واستوعبَ النظرَ في الجوانب الإيجابية والإبداعات، والجوانب السلبية والإخفاقات، وكانت النيّة هي استشرافُ سُبل التحسين والتطوير، وتوفير متطلباته المادية والمعنوية والإدارية، وتحسين ظروف العمل وحوافزه. أما إذا كان التقرير يستهدف صراحةً أو ضمناً تبرئة المؤسسة مما قد يكون نُسب إليها، أو إدانتَها، فالأمر عندئذ محاكمةٌ لا مراجعة!

لكنَّ النقد الذاتي في المؤسسات يتَّسع ليتجاوز الأحكام "الداخلية" لإدارتها والعاملين فيها، فقد لا يكون النقد المبنيّ على هذه الأحكام الذاتية كافياً؛ إذ يحتاج أحياناً إلى أحكام خارجية مستقلّة. ويتم ذلك حين تبادر المؤسسة -في نقدها الذاتي- إلى تصميم برنامج للنقد والتقويم والمراجعة، يأخذ بالحسبان أن تتولى تنفيذ البرنامج مجموعة من الأفراد من داخل المؤسسات ومن خارجها، يأخذون بالحسبان الحصول على البيانات المناسبة من مصادر متنوعة، وفي المجموعة خبيرٌ أو أكثر، تجتمع في الواحد منهم أو في مجموعهم الخبرةُ في نوع المؤسسة وعملها، والخبرةُ في التقويم وإجراءاته. وهذه هي

مسؤولية الخبراء الذين ينوّه القرآن الكريم بهم، ويدعو إلى سؤالهم ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: 59)، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: 14).

ومن المؤكد أنَّ النقدَ الذاتي يتضمن مشاعر نفسية، قد تكون إيجابية أو سلبية، لكن من المؤكد أيضاً الحاجة إلى أن يتضمن النقد أحكاماً دقيقة تعتمد على الحقائق والبيانات التي توفّرها مصادر مستقلة. وتتعاظم الحاجة إلى هذه الحقائق والبيانات ومصادرها المستقلة عندما يتَّصل النقدُ والتقويم والمراجعة بالمستوى الإداري في المؤسسة والمجتمع والدولة. وقد شهدنا الخبرة البشرية على مدار التاريخ كيف أنَّ مؤسسة القضاء في المجتمع يجب أن تكون مستقلة تماماً، لا تتأثر بتوجهات وأحكام ومواقف أصحاب القوة والنفوذ. وقد شهدنا كذلك أن الخبرة البشرية في إدارة شؤون المجتمعات والدول تطورت في تقسيم المسؤوليات العامة، إلى ثلاث سلطات تتكامل مسؤولياتها؛ فسلطةٌ تشريعية، وسلطةٌ تنفيذية، وسلطةٌ قضائية.

وللحديث في النقد الذاتي صلة إن شاء الله...

والله ولي التوفيق